

بسم الله الرحمن الرحيم



الأخلاق بين العلم و الفلسفة

ظهرت في الغرب و في القرون الوسطى الأخلاق الدينية الغير فلسفيه متمثلة بأخلاق الديانة المسيحية و تزامناً مع هذا الظهور ظهرت فلسفة الأخلاق في العالم الإسلامي . إستمدت كل من هذه الديانتين مفاهيمها الفلسفية من الفلسفة اليونانية . خضوع بعض المفاهيم الدينية لمفاهيم فلسفية أدى لظهور مفاهيم جديدة أخذت بُعداً أخلاقياً فأق بالإفراط و التفريط المفهوم الديني نفسه . بحثت الفلسفة اليونانية القديمة المفاهيم الأخلاقية بعيداً عن المثلولوجيا الدينية و سعت الى ربط مفاهيمها بالمثل و القيم و العقل و الخير و السعادة ، سارت الفلسفة الغربية المعاصرة على خطى الفلسفة اليونانية . على رغم تقارب المفاهيم الأخلاقية في فلسفة كانط من مفاهيم فلسفة الأخلاق الدينية إلا أن إقصاء اللاهوت و إرجاع الأخلاق للعقل جعل هذه الفلسفة في معرض الإنتقاد . يشكل مفهوم الله محور فلسفة الأخلاق الدينية ، ففي الأخلاق الدينية كل فعل يرضي الله هو أخلاقي و كل فعل يغضب الله هو غير أخلاقي ، ناتج رضى الله و تجنب غضبه هو سعادة دنيوية و آخرويه . تخضع الأفعال التي ترضي الله و تجنب من غضبه لمنظومة عقلية و عقائدية في غاية الدقة و الإنسجام .

لست بصدد سرد الفضائل و الرذائل الأخلاقية و لا بصدد إعطاء تعاريف لها فكل القانون الأخلاقي قبل إن يدونّ في كتب الأخلاق قدّ دونّ في داخلنا ، و أعظم قانون أخلاقي هو أن يرتقي تصرفك و سلوكك لمستوى يليق به أن يصبح قانون يقتدي به الآخرين . لا يمكن بالإطلاق إرجاع الأخلاق الى أصول و تأثيرات كيميائية و حيوية و عضوية و وراثية . لا يمكن إنكار العوامل الوراثية و البيئية و العائلية في تأثيرها و تشكيلها للأخلاق ، لكن لم تعطي فلسفة الأخلاق و لا علم الأخلاق أهمية لهذه العوامل بقدر إهتمامها بالمفاهيم و القيم الأخلاقية .

لو إن القانون الأخلاقي من صنع الأقوياء لما نبذت الأخلاق هيمنة الأقوياء على الضعفاء، و لإن كان من صنع الضعفاء لما خضع له الأقوياء . فالإنسان مهما كان قوي لا يستطيع أن يتخطى جميع القوانين الأخلاقية . يجب التذكير بأن مفهوم القوي و الضعيف الذي كان ينظر إليهما نيتشه قدّ تغير اليوم ، فسبل الإستقواء اليوم متاحة لجميع الضعفاء وقدّ أثبتت جميع الأدلة التاريخية على إن العلم و القدرة ليسا و حدهما من ضروريات الرجل المثالي (أو السوبرمان) و للأخلاق القدرة على إيصال الإنسان لمكانة تفوق مكانة السوبرمان عند نيتشه .

لم ينزل سقراط الفلسفة من السماء الى الأرض بالكامل ، و ذلك لبقاء أهم أركان الفلسفة معلقاً في السماء و هذا الركن هو الأخلاق . بقت هالة القداسة و المثالية تحيط بالمفاهيم الأخلاقية ، على رغم الأرضية الفلسفيه التي أشادها سقراط للفلسفة ، فالمثالية الأخلاقية الإفلاطونية أفسلت المشروع الأرضي للفلسفة و بقت فلسفة الأخلاق في السماء . أرغم أرسطو فلسفة الأخلاق بالنزول الى الأرض فأبت فما كان عليه إلا أن يتعامل مع الاخلاق علمياً فوضعنا أمام علم الأخلاق لا فلسفة الأخلاق . في فلسفة الأخلاق أنت أمام طيف من القداسة و المثالية الأخلاقية بينما في علم الأخلاق أنت أمام مجموعه من القوانين و القيم

الأخلاقية . يمكن مشاهدة التعامل المزدوج الفلسفي و العلمي للأخلاق في الأديان السماوية.

النظرة العلمية للأخلاق جعلت من الأنبياء حقائق لا تتحملها الحكومات و لا تتقبلها الشعوب حتى أصبحت ثورة الأنبياء و الثورة على الأنبياء قوة وراء جميع التغيرات . العامل الأخلاقي المثالي و المقدس من أهم دواعي النبوة و من طالع الأديان و أنبيائها سيلاحظ تأثر الرسالة بأخلاق الرسول . فكل رسالة هي إنعكاس أخلاق رسولها .

الغاية من فلسفة الأخلاق هو الخير و الغاية من علم الأخلاق هي السعادة و هما المفهوم اللذان شكلا مقولة فلسفة الأخلاق عند إفلاطون و علم الأخلاق عند أرسطو . تتعامل فلسفة الأخلاق مع المفاهيم الأخلاقية بخيرها و شرّها فتضعك أمام طيف من المفاهيم الأخلاقية لا مع حسنها و لا مع قبحها لا مع خيرها و لا مع شرّها بل مع جميعها ، بينما يضعك علم الأخلاق أمام قوانين و قيم أخلاقية غايتها السعادة . الخير هو أساس السلوك الأخلاقي و السعادة هي أساس القانون الأخلاقي لذلك نرى دوافع النزعات اللا أخلاقية هي دوافع غير سلوكية و غير قانونية . أين يلعب العقل دوره الصحيح أمام طيف من المفاهيم الأخلاقية أم أمام مجموعه من القوانين و القيم الأخلاقية ؟ بالطبع أمام مجموعة من قوانين و قيم أخلاقية ، و الفكر هو الذي يتعامل مع الأطياف . إذا كانت الغاية من الأخلاق هي السعادة فالعقل هو الذي يشقّ طريق السعادة ، إذا إرتقت هذه السعادة و شملت سعادة الدنيا و الآخرة فهذه هي غاية الأديان ، و سعادة الآخرة لا تتحقق من خلال علم الأخلاق فقط بل يجب كذلك وقوفها عند فلسفة الأخلاق . يجب عدم الفصل بين ميتافيزيقية الأخلاق و اللاهوت . في علم الأخلاق تبنى الميتافيزيقيا على الأخلاق و في فلسفة الأخلاق تبنى الأخلاق على الميتافيزيقيا . على رغم أهمية كانط الفلسفيه إلا أنه تعامل مع المفاهيم الفلسفيه (الأخلاقية) علمياً فخرج بقانون أخلاقي مثالي، صارم ، مطلق ، غير مشروط لا

يخضع للتجربه و في نفس الوقت مصدر هذا القانون الأخلاقي هو العقل وحده الذي نزع به سلطة اللاهوت . لا ينطبق القانون الأخلاقي الصارم على مبادئ عقليه فقط ، ترجع مطلقيه و صرامة القانون الأخلاقي للاهوت قبل العقل . العقل يستعمل لإقامة البراهين و نقائضها ، لذلك فالقدرة العقلية قادرة على الإثبات و النفي في جميع المجالات . الحجج السفسطائية هي الوجه الآخر للقدرة العقلية ، إستطاع السفسطائيين إقحام العقليين إذا صحت تسميتهم و إستطاع العقليين إقحام السفسطائيين بهذه القدرة أي قدرة العقل و كانت و لا زالت سيف ذو حدين .

اللوحة الجميله التي ترسمها المفاهيم الأخلاقية تضعك أمام كل ما حولي جميل و أريد أجمل ، و اللوحة الجميله التي ترسمها المبادئ و القيم الأخلاقية تضعك أمام كل ما حولي غلط و أريد شيئاً صحيح . جمال الأخلاق هو قانون إلهي و صحة الأخلاق قانون عقلي أحياناً تقع في فخ النظرة القاصرة عندما نريد أن نرى كل شئ بشئ . أيهم أصح أن تفهم الحياة من مفاهيمك أم من مفاهيم غيرك ؟ مفهوم الحياة هو مجموع مفاهيمك و مفاهيم غيرك إذا أقتصرت حياتك على مفاهيمك ستسلب الحرية و الإرادة من الآخرين و إذا إقتصرت على مفاهيم الآخرين سيسلبون حريتك و إرادتك . حملت "عبارة أعرف نفسك بنفسك" الإنسان مسئولية قاسية ، فمن عرف نفسه لم يعطيه الآخرين حقه ، و من لم يعرفها لم يعطيه الآخرين حق معرفتها و ضعنا في هذه المعرفة ، لقد تخلى الحكيم بعبارته هذه عن مسئوليته إتجاه الآخر في معرفة الأنفس .

تقف الأخلاق على هرم تشكل الحرية رأسه و قاعدته فهذا الهرم بقدر ما هو مستقر و هو واقف على قاعدته هو غير مستقر إذا وقف على رأسه . تسعى المنظومه الأخلاقية أن تعطي للإنسان أنواع الحريات و الصلاحيات الأخلاقية ، و في نفس الوقت هي تقيد الحريات . عندما تحرر القيود الفكر صانعة حرية التفكير ، تحرر القيود الأخلاقية

المجتمعات صانعة حرية العيش و التعايش ، يظهر من تقيد الحرية للحريات هنا ، حرية التعبير فتسمع دوي صرخات بين الحين و الحين من ذوي شعارات: أنا سألغم نفسي إن بات فكري أسير و سأفجرها في كل رأس لا يدرك التحرير! تتعارض المقوله الأخلاقية مع هذا النوع من التحرير الذي أعتمدت عليه الفلسفة الوجودية بتشكيكها و تشويهها للمثل و القيم الأخلاقية فإستغلت الرؤس الضعيفة لتفجر فيها أفكارها تاركة شظاياها في أشلاء المثل و القيم الأخلاقية . بدأت هذه الفلسفة بإعلان موت الله الذي صنعت له نعشاً من أفكارها و شيعته بين مروجيها و للأسف الشديد وقف عامة الناس متفرجين لهذه المأساة التي لم يعطوا بها حرمة لشيء كي لا يأخذ منهم حريم ، إنتهت هذه الوجودية بحكومات علمانية و ليبرالية هي مع الحرية لكنها ضدّ الأحرار ، في مقابل حكومات ديكتاتورية هي ضدّ الحرية و الأحرار معاً لذلك قليلاً ما نسمع هذه الأيام عن أحرار !

لفلسفة الأخلاق القدرة على التعامل مع الإنسان على إنه موجود خلوق يخلو من العاهات الأخلاقية فتضع هالة من القداسة و المثل على رأسه ، بينما يفقد علم الأخلاق هذه القدرة على التعامل . إنتشرت الأخلاق بشكل فائق التناظر بين الناس فهي في غاية المثالية عند البعض و في غاية الهمجية عند البعض الآخر و العامة بينهم ، لأن الأفعال الأخلاقية تنسب لمفتعليلها . جميع الأفعال هي بين الأخذ و العطاء كالواجبات و الحريات إلا الأفعال الأخلاقية فهي لا تأخذ و لا تعطى لأن وراء جميع المثل و القيم الأخلاقية قوى دافعة و جاذبة يمكن إحساسها و الشعور بها عند الوقوف أمام فعل أخلاقي أو غير أخلاقي ، أحياناً يرتقي هذا الإحساس و الشعور الى الوعي ليشكل أسمى الحالات الأخلاقية و هي : نعيّ ما نفعله . أحد أهم الأسرار و راء عدم الأخذ و العطاء في الأفعال الأخلاقية عبرت عنه بهذا التعبير :

الرجل يحب أشياء و يقنع بشيء ، و المرأة تحب شيء و تقنع بأشياء ، لا الرجل يصل الى ما يقنعه و لا المرأة تصل الى ما تحبه ، و الحياة بين حبّ الرجل و قناعة المرأة .



موقع جلال الحاج عبد

www.jalalalhajabed.com

البريد الإلكتروني :

jalal.alhajabed@hotmail.com

jalal.alhajabed@yahoo.com